

## ختام العدد في التصوير



### I

«إن تخلّيت يوماً عن التصوير فلن يشعر أحد بوطأة ذلك عليه، لن يشعر المجتمع بأن صوري تعوزه». هذا ما قاله المصور الدنماركي الكبير Per Kirkeby في معرض حديثه عن التصوير، وليس لي هنا إلا أن أعلن عن تأييدي الصريح لموقفه، ثمة الكثير من الوهم العالق في مخيلتنا عن التصوير، هناك من يذهب

عمار سلمان داود ❖

**هل أقول إذن إنني أكره هذا العالم؟ وإن كرهته، فهذا لأنه مؤث من قبل الإنسان بطريقة سيئة جداً**

فضاء الأشياء والآخرين.

لن اكشف عن سرّ إذا ما قلت إن التصوير أبدلني بنفسه عن وجع وجودي، فهو فضائي الذي أتفلس فيه هواء حياتي الأخرى والمفترضة. هل أقول إذن إنني أكره هذا العالم؟ وإن كرهته، فهذا لأنه مؤث من قبل الإنسان بطريقة سيئة جداً! وهذا الأخير مشغول بتلبية حاجاته الملحة بلا هوادة، لا يعتريه وهن في الوصول إلى هدفه حتى لو كلفه هذا قتل الآخرين وقطع كل أزهار هذا العالم وأشجاره، أي ليل أسود يعيش؟ وكم من النجوم أطفأ؟

ونتيجة لهذا، سيصبح التصوير نوعاً من الخلاص ومسلماً رائعاً حتى في وعورته!

إن اللذة بشكليها المادي والروحي هي من أهداف البشرية الملحة، ولكنّ أسّ البلاء هو في وسيلة الوصول إليها! هل أقول إذن في التصوير يوجد الكثير من تلك اللذة، ومن جهة كونه ينشد وحدة تحلم بها كل البشرية، وحدة مؤسسة على تجانس وتناغم كل مظاهر هذا العالم، وحدة قائمة على إلغاء كل المتناقضات.

## II

«ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر.»  
الحسين بن منصور الحلاج (الطواسين).

إلى أبعد من كون التصوير مجرد حاجة شخصية وذاتية جداً لا تتفق دوماً مع حاجة الجمهور، وقد لا تجد لها حتى جمهوراً، بقدر كونها ضالعة في صناعة الحضارة بمعناها الأعم الخارج عن مسارات التاريخ ونواياه، هناك من يعتقد بأنّ التصوير مثل الخبز أو الماء وتذهب به الفتازيا العقائدية إلى حد الإيمان بأنه قادر على تغيير التاريخ وتقويم المجتمعات، نعم، هو قادر على ذلك، ولكن لمن يريد من الأفراد، أي لمن يسلك سلوكاً ايجابياً بإزاء التصوير بمعنى أن يكون جاهزاً لتلقيه والتعمق في فهم أسرارهِ والبحث عن مفاتيح عالمه - ليست كل هذه المفاتيح فعالة ولا الأسرار التي نعتقد أن لها علاقة معه هي متطابقة دائماً مع جوهره أو منجزاته - فالتصوير ترجمة أخرى فريدة من نوعها للعالم فهي لا تحيل غير المفهوم إلى مفهوم بل تمنح ما هو غير مفهوم كياناً آخر جاهزاً لأن يكون مرئياً وملموساً، مبهجاً أو كابوسياً، مكروهاً أو محبوباً، مريحاً أو مؤلماً، مقرأً أو مربكاً، غامضاً أو مبهماً مهدئاً أو مقلقاً ولكن ليس كياناً مفهوماً.

إنّ أي فكر عقائدي واعد بيوتوبياه، لن يجد مكاناً مريحاً له في وصفة الفنان السحرية إلى العالم أبداً، فهي وصفة خارجة عن قوانين المألوف والعادي، والسياسي الأيديولوجي أو العرفي التقليدي، لأنها لا تجد فحواها في صنيع أفعالنا الظاهرة بل بما تستبطنه من عبث أو الغاز أو لا جدوى، فحكمة التصوير هي أشبه ما تكون بسلم فارح يمتد في الفضاء إلى ما لانهاية، ومن يصعده يعتريه خوف معجون بلذة الفرح ومغامرة الصعود في

حدسي عالٍ لمعاملة الأشياء ومن بعد مراوغة هيئاتها.  
قال أبولونيوس: أراد الإنسان أن يقلد حركة المشي  
فصنع العجلة التي لا تشبه حركة المشي في شيء.  
الصورة لا تختلف صناعتها عن حال الدخول في  
متاهة. يمكن لي أن أبدأ من أي مدخل أشاء: من هيئة  
كرة، من خط، من بقعة، أو نقطة. فالمدخل بصفته توطئة  
سيكون سهلاً جداً، ولكن ما هو صعب في إنشاء الصورة  
هو نجاح هذه التوطئة في استقدام شبح هذه الصورة أو  
تبنيه لمشهد ما يمكن أن يصل بي إليها. لا يكفي إذن أن  
تعرف كيف تبدأ فحسب، وإنما عليك أن تعرف كيف  
تصل، أي أن تكتشف الصورة لكي تمنحها ملامحها.  
تكمُن جمالية الصورة في ضبابية ومجانية محتواها  
وانتفاء أحادية الغرض فيها، فالهياكل بحد ذاتها غير  
قادرة على التخلص من الإيماء إلى معنى ما. ولكن  
بفضل عنصر المجانية والضبابية، تتخلص الصورة من  
وزر دلالتها، وهي سمة ضرورية فيها. فهي أشبه بالنص  
اللغوي الذي تعرّض للخراب ودرست بعض معالمه؛  
فهو من جهة يقرأ بالكاد، ويفهم بالحدس من ناحية  
أخرى، إذن هي صورة قابلة للتجدد من جهة التأويل بعد  
كل مشروع قراءة. وكلما تشعبت مسارب قراءة الصورة  
زادتها قوة وتأثيراً.

إن إدراكي البصري الذي ما انفك يمدني  
بكيفية ظهور الأشياء يتحول فيما بعد إلى  
مادة لمخيلتي التي ستوصلني إلى نموذج  
آخر لظهور تلك الأشياء عينها

إنني لا أتحرز من استخدام الحدس في تناول ماهية  
التصوير، لأنه كفيل بإعادة ذاتي إلى نمطها البدهي غير  
المقيد بنظم الحكم الإطلاقي أثناء التصدي للبحث في  
العناصر المؤسسة للصور. سيفضي هذا الحدس بذاتي  
إلى أن تمحو العقل باللاعقل، ذلك من أجل أن تنغمس  
في إحساس بالأشياء يتناقض وطبائع الإدراك الحسي  
العادي بها. هي ذاتي الخاضعة لقدرها الإنساني: بصفاته  
أو بعصف أهوائها، المتجهة نحو الجمال الذاهب أبداً  
إلى تشظي معانيه.

هذا الجمال الذي هو سبيلي الأنسب من أجل الرضا  
بالعيش. فأنا لست بعالم كي أحيّد اختباري للعالم، بل  
أرى العالم برمته وهو يتحول في داخلي. فاختباري  
للعالم يقرّبني من نفسي: من خوفاً، من قلق، ومن  
شعوري بالعبث، وأخيراً، من مخيلتي التي هي صنيع  
تأملني وحيرتي وحيرتي. هذه المخيلة التي لن تكتفي  
بإدراكي الحسي المستمد من حضوري في خضم  
العالم وحسب، بل ستتجاوز ذلك إلى ما يؤهلها لأن  
تكون العنصر الأكثر أهمية لتشييد معمار صورتي، فهي  
بتخلفها عن الانتماء إلى الزمان والمكان كفت عن  
الخضوع لقوانين الكينونة وكل الشروط المولية لما  
نصفه بالطبيعي.

إن إدراكي البصري الذي ما انفك يمدني بكيفية  
ظهور الأشياء يتحول فيما بعد إلى مادة لمخيلتي التي  
ستوصلني إلى نموذج آخر لظهور تلك الأشياء عينها.  
فأنا غير ملزم بأن أطلب العون من العقل إلا بقدر حاجتي  
له لتنظيم فوضى مخيلتي ورغبتني في أن أتوافر على فكر

### III

كان عليّ منذ البدء أن أجعل من نفسي بؤرة استقطاب كبيرة، فمثلما يحلم العنكبوت بأن تلتصق الأشياء بنسجته، احلم أنا بأن تلتصق الأشياء بنسجي الداخلي، وأن لا أمشي على سطح الحياة إلاّ بخطى يثقلها الشك. فمن يدري، فقد تستنشق صوري هواء عوالمها في شقوق الأرض وقصاصات الورق أو بقع الطين وحتى في أكثر المظاهر والمواد قابلية على الزوال.

وكان لابد لي أيضاً من أن أرعى الملايين من عصافير المخيلة، ذلك لأنها هي وحدها من بين كل الأشياء الضالة في متاهات وجودنا العملي، قادرة على جلب صواعق الدهشة من الجهة الأخرى للعالم، الدهشة بإزاء انكشاف الوجه الحقيقي للحياة من بين طبقات غبار الغموض الذي يخفي ذلك الوجه.

ما الذي يدعوني إلى هذه الزمالة الأبدية مع المخيلة، سوى ذلك الشعور الخارق والدائم بلا عدالة سبل ظهور الأشياء، وبأن ما هو كائن ما هو إلاّ وجه شاحب لما يمكن أن يكون عليه حقاً، وأن ما اعتدنا أن نسميه بالحياة لا يعدو إلاّ أن يكون مجموعة من العلامات لفك رموز عالم أرحب، علامات ملقاة على قارعة وجودنا العملي.

ولكي نلج ساحات هذا العالم الأرحب، كان لابد من استعمار النفس قبل

والاحتفاء بطغيان المشهد الأوحده لم يعد أمراً ضرورياً على الدوام، بل على العكس سوف تتدافع المشاهد المتزاحمة على الظهور في الصورة عينها وهي تغطي بعضها البعض جزئياً دون أن تلغى بعضها كلياً، وسوف يؤدي هذا التراكم إلى قيام العين بمهمة (إبصار أركيولوجي) يقوم بعمليات من قبيل: التنقيب وليس التلقي السلبي، الاسترجاع وليس المواجهة، الإبصار الحدسي وليس الإبصار اليقيني. إذن، ما الذي سيظهر منّي في رسومي؟ هل هي نفسي، بما آلت إليه من فرح أو حزن أو قلق؟ فكرتي؟ وعن ماذا؟ الكون، الموت، الروح، الحرب؟ أم أثر فعل يدي بأحوالها: النزقة، المترددة، القاسية، المترفقة، أم المتوترة؟ إنّ ما سيظهر مني بلا شك شيء أشبه بالرجع المتكرر في الوادي، أو كبرق يضيء شيئاً من عتمة ليل غابة كثيفة ولو للحظات وامضة.



أعمالي نصوصاً كثيرة، ولأشرتُ فيها إلى ما يمكن أن تكون عليه هذه الأعمال، وما لم تكن، ذلك لأنني أحلم بأيدي ناعمة وهزيلة لشخصي ورؤوس نادرة وعجيبة، ولكنها لا تأتي كما يراود لها دائماً، ففي حقول الروح تنبت عجائب كثيرة، ولكن حصاها ليس بيسير.

تأمل المعضلة: في قلب كل رسام شوق قديم لصورة صعب عليه استحضارها، ولو تمكن من ذلك لمات فعل الرسم. كل مبدع صياد، وحين يأتي إلينا، بعد مشقة رحلة أميال طويلة في الغابات، بأحاديث عجيبة وأكاذيب هائلة، لكان أفضل لنا بكثير من الوقوف وتأمل الحياة التي توقفت في قلب الحيوان الجريح، ذلك لأن الإبداع تخيل وليس تحقق المتخيل أبداً. هو سفر طويل، وليس محطة الوصول أبداً.

إن فعل الإبداع إنما يستمد وجوده من  
المواعيد المرجأة ومن الانخفاطات  
المفاجئة دائماً

إنّ ما سيظهر مني بلا شك شيء أشبه  
بالرجع المتكرر في الوادي، أو كبرق  
يضيء شيئاً من عتمة ليل غابة كثيفة ولو  
للحظات وامضة

كل شيء، وصقل أبدي لمجاهل الروح، وأن نستغيث بظلال الأمل دائماً: تلك الظلال التي تمدنا بطاقات أكبر لقلب نظام الأشياء ومدّها بدماء جديدة تحث في اتجاه حرية بلا حدود. وهي الحرية التي يضعني تحققها في مواجهة مسئولية عصية ازاء نفسي والعالم.

حين أشرع بفعل الخلق تطاردني الملايين من عصافير المخيلة، وهناك على الأفق البعيد تحط وتنتظر لمحّة واحدة فقط من بصري، لتنتقل بعدها من جديد. فلو كنت راقبتها لساعات طوال لألقيت بعدة الرسم وما قررت أن افعل شيئاً على الإطلاق، ذلك لأن كلّ مخيلة هي وعد بتحقيق مطلق ولو تمكن الجميع من الإمساك بهذا المطلق لانطفأ فعل الإبداع إلى الأبد. إن فعل الإبداع إنما يستمد وجوده من المواعيد المرجأة ومن الانخفاطات المفاجئة دائماً. ولو أنني قصدت نوعاً بذاته من الجمال لفقدته. الجمال ليس ما نصنعه نحن ولكنه منا أيضاً.

دع عصافير المخيلة تقف على أرضك البور من غير تصنيف أو غربلة، ففي البدء لا يوجد تصنيف أبداً، ولا نهاية أكيدة لفعل الإبداع، ولو كنتُ كاتباً لعلقتُ بقرب

